

## التحرير والتنوير

فجمله ( فاعترفنا بذنوبنا ) إنشاء إقرار بالذنوب ولذلك جيء فيه بالفعل الماضي كما هو غالب صيغ الخبر المستعمل في الإنشاء مثل صيغ العقود نحو : بعث . والمعنى : نعتف بذنوبنا .

وجعلوا هذا الاعتراف ضربا من التوبة توهمها منهم أن التوبة تنفع يومئذ فلذلك فرعوا عليه ( فهل إلى خروج من سبيل ) فالاستفهام مستعمل في العرض والاستعطاف كليا لرفع العذاب وقد تكرر في القرآن حكاية سؤال أهل النار الخروج أو التخفيف ولو يوما . والاستفهام بحرف ( هل ) مستعمل في الاستعطاف .

وحرف ( من ) زائد لتوكيد العموم الذي في النكرة ليفيد تطلبهم كل سبيل للخروج وشأن زيادة ( من ) أن تكون في النفي وما معناه دون الإثبات . وقد عد الاستفهام ب ( هل ) خاصة من مواقع زيادة " من " لتوكيد العموم كقوله تعالى ( وتقول هل من مزيد ) وتقدم ذلك عند قوله تعالى ( فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا ) في سورة الأعراف وأن وجه اختصاص ( هل ) بوقوع ( من ) الزائدة في المستفهم عنه بها أنه كثر استعمال الاستفهام بها في معنى النفي وزيادة ( من ) حينئذ لتأكيد النفي وتنصيص عموم النفي فخف وقوعها بعد ( هل ) على ألسن أهل الاستعمال .

وتنكير خروج للنوعية تلطفا في السؤال أي إلى شيء من الخروج قليل أو كثير لأن كل خروج يتنفعون به راحة من العذاب كقولهم ( ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ) . والسبيل : الطريق واستعير إلى الوسيلة التي يحصل بها الأمر المرغوب وكثير تصرف الاستعمال في إطلاقات السبيل والطريق والمسلك والبلوغ على الوسيلة وبحصول المقصود .

وتنكير ( سبيل ) كتنكير ( خروج ) أي من وسيلة كيف كانت بحق أو يعفو بتخفيف أو غير ذلك .

قال في الكشاف " وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط " يريد أن في اقتناعهم بخروج ما دلالة على أنهم يستبعدون حصول الخروج .

( ذلكم بأنه إذا دعي [ ] وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم [ ] العلي الكبير [ 12 ] ) عدل عن جوابهم بالحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب وإذا قد كانوا عالمين به قالوا ( فاعترفنا بذنوبنا ) كانت إعادة التوقيف عليه بعد سؤال الصفح عنه كناية عن استدامته وعدم استجابة سؤالهم الخروج منه على وجه يشعر بتحقييرهم . وزيد ذلك تحقيقا بقوله ( فالحكم [ ] العلي الكبير ) .

فالإشارة ب ( ذلكم ) إلى ما هم فيه من العذاب الذي أنبأ به قوله ( ينادون لمقت ا أكبر من مقتكم أنفسكم ) وما عقب به من قولهم ( فهل إلى خروج من سبيل ) .  
والباء في ( بأنه ) للسببية أي بسبب كفرتم إذا دعي ا وحده .  
وضمير ( بأنه ) ضمير الشأن وهو مفسر بما بعده من قوله ( إذا دعي ا وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ) فالسبب هو مضمون القصة الذي حاصل سبكه : بكفركم بالوحدانية وإيمانكم بالشرك .

و ( إذا ) مستعملة هنا في الزمن الماضي لأن دعاء ا واقع في الحياة الدنيا وكذلك كفرهم بوحداية ا فالدعاء الذي مضى مع كفرهم به كان سبب وقوعهم في العذاب .  
ومجيء ( وإن يشرك به تؤمنوا ) بصيغة المضارع في الفعلين مؤول بالماضي بقرينه ما قبله وإيثار صيغة المضارع في الفعلين لدلالتهما على تكرر ذلك منهم في الحياة الدنيا فإن لتكرره أثرا في مضاعفة العذاب لهم .

والدعاء : النداء والتوجه بالخطاب . وكلا المعنيين يستعمل فيه الدعاء ويطلق الدعاء على العبادة كما سيأتي عند قوله تعالى ( وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ) في هذه السورة فالمعنى إذا نودي ا بمسمعكم نداء دالا على أنه إله واحد مثل آيات القرآن الدالة على نداء ا بالوحدانية فالدعاء هنا الإعلان والذكر ولذلك قوبل بقوله ( كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ) والدعاء بهذا المعنى أعم من الدعاء بمعنى سؤال الحاجات ولكنه يشمل أو إذا عبد ا وحده